المحاضرة الأولى- الخطابة العربية في العصر الجاهلي:

النثر الفني في العصر الجاهلي:

تمهيد:

عرف النثر في العصر الجاهلي غير أن كثيرا منه قد ضاع لانعدام التدوين؛ حيث يطلق عليه العصر الشفاهي، وفي هذا الإطار يقدم الدكتور شوقي ضيف توصيفا لواقع النثر العربي القديم، فيقول:" ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية، لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذى قيلت فيه وعصور تدوينها، ولذلك كان ينبغى أن نحترس مما رواه منها صاحب الأمالى وصاحب العقد الفريد، فأكثره أو جمهوره منحول. على أن اتهامنا لنصوصها لا ينتهى بنا إلى إنكارها على الجاهليين، بل إنه لا ينتهى بنا إلى إنكار ازدهارها كما حاول بعض الباحثين"[1]؛ حيث ينبه شوقي ضيف الباحثين على ضرورة التثبت من بعض الرواة ومن بعض النصوص النثرية التي يروونها في كتبهم كأبي علي القالي، وابن عبد ربه الأندلسي في كتبهم التي سبق ذكرها .

غير أنه لا يوغل كثيرا في شكه في نصوص النثر القديم واتهامه لها ولأصحابها، فيعود ويذكر بازدهارها في العصر الجاهلي، فيقول:" قد كان كل شيء عندهم يؤهل لهذا الازدهار، إذ لم يكن ينقصهم شيء من الحرية، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى. وقد اتخذوا من مجالسهم في مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الأمراء ووفاداتهم عليهم ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم في المقال وحوك الكلام. وأسعفتهم فى ذلك ملكاتهم البيانية وما فطروا عليه من خلابة ولسن وبيان وفصاحة وحضور بديهة"[2]؛

فهو هنا يذكر بالقدرات العقلية للعرب وبالملكات البيانية التي يمتلكونها. وللجاحظ توصيف نقدي لبلاغة العرب في الجاهلية قال فيه:" كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالا (أفواجا) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا.

وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من غير تكلف ولا

---

[1]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ط11، دار المعارف، القاهرة، مصر،1960، ج1، ص410.

[2]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ط11، دار المعارف، القاهرة، مصر،1960، ج1، ص410.

قصد ولا تحفظ ولا طلب"[1]؛ وهذه المؤهلات التي يمتلكها الخطباء العرب عملت على ازدهار فن الخطابة لديهم قبل مجيء الإسلام.

1- مفهوم الخطابة:

حظيت الخطابة العربية باهتمام النقاد واللغويين قديما وحديثا؛ وقد جاء مصطلح الخطابة في معج لسان العرب لابن منظور المصري؛ فقال:" الخِطابُ والمُخاطَبَة: مُراجَعَة الكَلامِ، وَقَدْ خاطَبَه بالكَلامِ مُخاطَبَةً وخِطاباً، وهُما يَتخاطَبانِ. اللَّيْثُ: والخُطْبَة مَصْدَرُ الخَطِيبِ، وخَطَب الخاطِبُ عَلَى المِنْبَر، واخْتَطَب يَخْطُبُ خَطابَةً، واسمُ الكلامِ: الخُطْبَة؛ قَالَ أَبو مَنْصُورٍ: وَالَّذِي قَالَ اللَّيْثُ، إِنَّ الخُطْبَة مَصْدَرُ الخَطِيبِ، لَا يَجوزُ إِلَّا عَلى وَجْهٍ واحدٍ، وَهُوَ أَنَّ الخُطْبَة اسمٌ لِلْكَلَامِ، الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ الخَطِيب، فيُوضَعُ موضِعَ المَصْدر. الْجَوْهَرِيُّ: خَطَبْتُ عَلَى المِنْبَرِ خُطْبةً، بِالضَّمِّ، وخَطَبْتُ المرأَةَ خِطْبةً، بالكَسْرِ، واخْتَطَبَ فِيهِمَا. قَالَ ثعْلب: خَطَب عَلَى القوْم خُطْبةً، فَجَعَلَها مَصْدَرًا. ورَجُلٌ خَطِيبٌ: حَسَن الخُطْبَة، وجَمْع الخَطِيب خُطَبَاءُ. وخَطُبَ، بِالضَّمِّ، خَطابَةً، بالفَتْح: صَارَ خَطِيباً. والخطبة عند العرب الكلام المنثور المسجع،(...) والخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر"[2] .

أما في التعريف الاصطلاحي، فقد جاءت لفظة الخطابة في كتاب التعريفات للشريف الجرجاني، في قوله:" الخطبة قياس مركب من مقدمات مقبولة، أو مظنونة (...) والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم أو معادهم كما يفعله الخطباء والوعاظ"[3]؛ وتعلق الدكتورة هناء حلاسة على هذا التعريف، بقولها:"إن الجرجاني في تعريفه هذا يركز على بعدين اثنين، بعد قائم على المظنونات، وهي الأمور التي يحكم العقل فيها راجحا إتباعا لغلبة الظن، كقولك فلان ينقل الأخبار فهو جاسوس، وبعد ثان قائم على المقبولات، وهي الآراء التي يكون مصدر التصديق فيها وقوعها ممن لا شبهة في صدقه مع كونها قابلة للصدق والكذب"[4] .

يعرفها أحمد حسن الزيات، بقوله:" الخطابة الخطابة كالشعر لحمْتُها الخيال وسُدَاها البلاغة وهي مظهر من مظاهر الحرية والفروسية، وسبيل من سُبل التأثير والإقناع. تحتاج إلى ذلاقة اللسان، ونصاعة البيان، وأناقة اللهجة، وطلاقة البديهة والعرب ذوو نفوس حساسة وإباء، وأولو غيرة ونجدة . فكان لهم فيها القدم السابقة والْقِدْحُ الْمُعَلّى . وقد دعاهم إليها ما دعا الأمم البدوية في الفخر بحسبها وتجارِها والذَّود عن شرفها وذمارها ، وإصلاح ذات البين بين والسفارة بين رؤوس القبائل وأقيالهم، أو بين الملوك وعمالهم .

---

[1]-الجاحظ: البيان والتبيين،(ط7)،تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر،1998، ج03، ص28 .

[2]- ابن منظور المصري: لسان العرب، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب، وآخر،ط03، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،1999، ج03، ص135.

[3]- الشريف الجرجاني: التعريفات،ط01، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان،1985، ص103.

[4]- هناء حلاسة: بلاغة الحجة في خطاب الخلفاء الراشدين،ط01، مركز الكتاب الأكاديمي، بيروت، لبنان،2016، ص46.

وكانوا يدربون فتيانهم عليها منذ الحداثة ، ويحرصون على أن يكون لكل قبيلة خطيب يشد أزرها، وشاعر يرفع ذكرها. وربما اجتمع الصفتان في واحد "[1] .

يعرفها الدكتور محمد قاسم الشوم، بقوله:" الخطابة مظهر من مظاهر التأثير والإقناع، تحتاج إلى ذلاقة لسان، ونصاعة بيان، وأناقة لهجة، وحضور بديهة، وللعرب في الخطابة القدم السباقة منذ القدم"[2]؛

وأما الدكتور عبد الإله الصائغ فقد اعتبر الخطابة الفن النثري الأول في الوجود القولي العربي، فقال عن الخطابة:"هي أم الفنون النثرية، فقد ولدت وحضنت فنونا نثرية عديدة من نحو الأمثال والمناظرات والوصايا"[3]؛ وبهذا المفهوم فإن الخطابة هي أم الفنون النثرية العربية في عصر ما قبل الإسلام، ومنها تفرعت الأجناس النثرية وأخذت طوابعها الفنية.

2- نشأة الخطابة في العصر الجاهلي:

هناك كلام كثير يدور في كتب الباحثين قديما وحديثا، حول نشأة الخطابة العربية في العصر الجاهلي، نذكر من هؤلاء الدكتور محمد التونجي؛ حيث تحدث عن نشأة الخطابة في العصر الجاهلي، فقال:"نشأت الخطابة عند العرب شأنها عند سائر الأمم نشأة طبيعية، نتيجة لحاجة القبائل، ولاسيما أن الأمية كانت سائدة بين العرب. فاستخدموها مع الوفود، وإبان النوائب والملمات، وحثا على الحروب والثبات، كما احتاجوا إليها في خطب الزواج"[4].

كما تكلم الدكتور إحسان النص عن نشأة الخطابة العربية، وارتباطها بنشأة الجماعات، فقال:" الخطابة العربية قديمة ترتبط بنشوء الجماعات الأولى في البيئة العربية – وهي – كسائر النثر الأدبي – متأخرة في وجودها عن الشعر · ليس بين أيدينا نصوص تمثل مختلف الأطوار التي مرت بها الخطابة الجاهلية ولم وتقفنا على خصائصها، لأن الأمية كانت غالبة على العرب في ذلك العصر ، تكن الكتابة شائعة فيه إلا في بيئات محدودة ولغايات تجارية على الأغلب ولهذا السبب ضاع جل الأدب الجاهلي ولم يسلم لنا منه إلا ما وعته ذاكرة الرواة ، وهذا القليل الذي انتهى إلينا أكثره من الشعر لأن ارتباطه بالوزن والموسيقا أعان على حفظه. ومع ذلك فإن ما انتهى إلينا من الأدب الجاهلي لم يسلم، عن عمد أو عن غير قصد، من التحريف والتزوير والعبث، ومن الباحثين من أنكر صحة كل ما وجدناه من النثر الجاهلي ورأى أن هذا النثر إنما وضع في العصر الأموى وصدر العصر العباسي لأغراض دينية "[5]. ويقول حنا الفاخوري في وصف الخطيب العربي وسليقته الخطابية:"العربي خطيب من طبيعته، تأتيه الخطابة عفواً

---

[1]– أحمد حسن الزيات:تاريخ الأدب العربي، (د.ط)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر،القاهرة،مصر،(د.ت)، ص19.

[2]– محمد قاسم الشوم: من الأدب الإسلامي في عهد النبوة، (ط7)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،2007، ص119.

[3]– عبد الإله الصائغ: الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب الأدبية وتحليل النص،ط01،دار الفكر المعاصر،صنعاء،اليمن، 1999، ص497.

[4]– محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب،(د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1999، ج01، ص 403-404.

[5]– إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي (د.ط)، دار المعارف بمصر، ،1963، ص 07.

وتشيع أساليبها حتى في شعره . والخطابة عند الجاهلي بمقام الشعر، فهي كالشعر لسان الدفاع عن القوم، والتحريض على القتال ونصرة الضعيف، ورسالة الملوك"[1].

وأما الدكتور بيومي السباعي، فيقدم وصفا لنشأة الخطابة العربية في العصر الجاهلي:"تفرقت العرب في باديتها المترامية الأطراف الواسعة الأكناف قبائل متشعبة تتمسك كل منها بعصبيتها ونعرتها وتحرص على عزتها وكرامتها وتنقاد إلى رئيس هو ملاك أمرها وقوام شأنها ترى فيه رمز أنفتها وعنوان مجدها وتختاره من أكرم العناصر فيها وأقدرهم على التفاهم معها حتى يكون قلبها النابض ولسانها الناطق يهيب بهم في كل حادث ويجمعهم لكل خطب فيكون له كلام ومنهم استماع. ومن ثم كان من ألزم سمات الرئيس وأظهر الصفات فيه مقدرته على القول وتملكه زمام البيان، فنشأت الخطابة سليقة في الرؤساء ونبغ فيهم من مصاقع الخطباء الجم الغفير حتى كان لكل قبيلة خطيب. فالخطابة إذن وليدة حاجة العرب الطبيعية ونظام عيشهم الاجتماعي، ولقد رفع من شأنها فوق ذلك كثرة الدواعي إليها وانتشار الأمية بينهم"[2]

ويقول في ذكر المحفزات على الخطابة: " فبها كانوا يحرضون على القتال وشن الغارات والأخذ بالثأر وبث الحمية في النفوس وتحبيب الموت إلى الجبان في بيئة تتطلب منهم ذلك كل وقت و آن . وبها كانوا يدعون إلى السلم كلما اكتووا بنار الحرب فلا يزال خطيبهم فيض في أضرار القتال ومنافع "[3]

وقد اشتهر من خطباء مكة عتبة بن أبي ربيعة، ومن خطباء المدينة قيس بن الشماس، ومن خطباء البادية أبو عمار الطائي، وأشهر القبائل خطابةً تميم[4].

3- خطباء العرب في العصر الجاهلي:

كثر خطباء العرب في العصر الجاهلي نظرا إلى البيئة الاجتماعية والسياسية التي يعيشون فيها، وكانت الخطابة ملمحا من ملامح نهضة النثر العربي القديم؛ وقد تحدث جرجي زيدان عن ذلك فقال:" وجملة القول إن الخطباء كانوا كثيرين في النهضة الجاهلية كالشعراء، والغالب فيهم أن يكونوا أمراء القبائل أو وجهاءها أو حكماءها، وكان لكل قبيلة خطيب أو أكثر كما كان لها شاعر أو أكثر، وأشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة من بني إياد وقد أدركه الرسول صلى الله عليه وسلم فرآه في سوق عكاظ على جمل أحمر، وهو يقول في خطابه: (أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا، من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت)، وقد تقدم

---

[1]- حنا الفاخوري:الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، (ط1)، دار الجيل،بيروت،لبنان،1986، ص 115.

[2]- السباعي السباعي: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي،(د.ط)،مطبعة العلوم بشارع الخليج، القاهرة،مصر،1932، ص 96.

[3]- السباعي السباعي: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي،(د.ط)،مطبعة العلوم بشارع الخليج، القاهرة،مصر،1932، ص 97.

[4]- ينظر، حنا الفاخوري:الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، (ط1)، دار الجيل،بيروت،لبنان،1986، ص 115.

ذكره بين الشعراء"[1]. وقس بن ساعدة ليس مجرد خطيب فقط بل هو حكيم من حكماء العرب. وقد يكون الخطيب سيدا من ساداتهم، وإلى هذا القول ذهب الدكتور محمد طاهر درويش، حيث يقول:"ومن أقدم خطبائهم كعب بن لؤي، وكان يخاطب العرب عامة، ويحض على البر كنانة خاصة، ولما مات أكبروا موته، وأرخوا به حتى جاء عام الفيل، وذو الأصبع العدواني حرثان بن محرث، ومن أشهر خطبائهم قيس بن سنان خطيب داحس والغبراء، وخويلد بن عمرو الغطفاني خطيب يوم الفجار، وقس بن ساعدة الإيادي خطيب عكاظ، وسحبان بن وائل الباهلي، وأكثم بن صيفي حكيم العرب وقاضيها وزعيم خطبائها، وحاجب بن زرارة التميميان، والحارث بن عباد، وقيس بن مسعود البكريان، وخالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة، وعامر بن الطفيل العامريون، وعمرو بن الشريد السلمي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وقيس بن الشماس، وسعد بن الربيع من بني قيلة، والحارث بن ظالم المري، وأبو عمار الطائي خطيب مذحج كلها والحارث بن كعب المذحجي، وقيس بن زهير العبسي، وجماعة من حمير، منهم دويد بن زيد، وزهير بن جناب، ومرثد الخير، والصباح بن شقي "[2]

4- مكانة الخطابة في العصر الجاهلي:

ونظرا للمكانة التي كانت تحظى بها الخطابة في العصر الجاهلي، فقد وقف أبو عمرو بن العلاء موقف المُوازن بين الشاعر والخطيب فنجده يقول:" وقال أبو عمرو بن العلاء: كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر. ولذلك قال الأول: «الشعر أدنى مروءة السري، وأسرى مروءة الدنيّ»"[3].

4- أقسام الخطابة في العصر الجاهلي:

---

[1]- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، (ط1)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر،2012، ص 195.

[2]- محمد طاهر درويش: الخطابة في صدر الإسلام،(ط1)، دار المعارف بمصر، القاهرة، مصر،1968،ج1، ص56.

[3]- الجاحظ: البيان والتبيين،(ط7)،تح عبد السلام هارون، متكبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر،1998، ج01، ص241 .

.

قسم النقاد والدارسون الخطابة العربية في العصر الجاهلي باعتبار الاستخدام والسياق الذي يكون فيه الخطيب، وقد ذكر حنا الفاخوري هذه السياقات، فقال:"كانت الخطابة للمفاخرة أو المنافرة، أو لصد عادٍ أو حض على حرب. والخطابة في الجاهلية هي خطابة شعب بدائي يحتفل شديد الاحتفال بالمظاهر والحركات والنبرات الصوتية، ويحاول الإقناع عن طريق التأثير العاطفي"[1].

وفي هذا الصدد يؤكد الدكتور السباعي بيومي على ارتباط الخطابة بالبيئة العربية، فيقول: " لم يعرف الجاهليون من ضروب الخطابة إلا ما اقتضته بيئتهم وحياتهم العامة، فكل هذه الضروب تتصل بالحياة القبلية التي كانت سائدة إذ ذاك ، وتلائم حياة العرب العقلية والسياسية والاجتماعية في ذلك العصر ولن أجرى هنا على التقسيم الثلاثي الذي اتبعته في العصر الأموى، لأن هذه الأقسام لم تكن قد تحددت معالمها في العصر الجاهلي، فلا نجد فيه خطابة سياسية ولا خطابة دينية بالمعنى الدقيق، وأكثر ألوان الخطابة الجاهلية تمت إلى الخطابة الاجتماعية"[2]. وقد قسم الدكتور بيومي السباعي الخطابة العربية في العصر الجاهلي حسب موضوعاتها إلى:

1- خطب المنافرات والمفاخرات:

كثيرة هي تلك الخطب التي يتصل موضوعها بالمنافرات والمفاخرات، حيث كان العرب في جاهليتهم يهتمون بهذا النوع من الخطب؛ يقول إحسان النص:" كانت الحياة القبلية تحمل العرب على التفاخر بالأحساب والأنساب والمآثر، وقد روت لنا كتب الأدب جانبا من هذه المنافرات كمنافرة القعقاع بن معبد التميمي وخالد بن مالك النهشلى، وكان الحكم بينهما ربيعة بن حذار الأسدى. وأشهرها منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين وكان الحكم بينهما هرم بن قطبة"[3].

وقد روى القلقشندي في كتابه: (صبح الأعشى)، فقال:" لما أسن أبو براء: عامر بن مالك بن جعفر بن ملاعب الأسنة، تنازع في الرياسة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر، وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر. فقال علقمة: كانت لجدي الأحوص؛ وإنما صارت لعمك بسببه، وقد قعد عمك عنها، وأنا استرجعتها؛ فأنا أولى بها منك، فشرى الشر بينهما، وسار إلى المنافرة. فقال علقمة: إن شئت نافرتك؛ فقال عامر قد شئت. والله إني لأكرم منك حسبًا، وأثبت منك نسبًا، وأطول منك قصبًا.

قال علقمة: والله لأنا خير منك ليلًا ونهارًا؛ فقال عامر: والله لأنا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهم منك، أنا أنحر منك للقاح، وخير منك في الصباح، وأطعم منك في السنة الشياح. فقال علقمة: أنا خير منك أثرًا، وأحد منك بصرًا، وأعز منك نفرًا، وأشرف منك ذكرًا؛ فقال عامر: ليس لبني الأحوص فضل على بني مالك في العدد، وبصري ناقص، وبصرك صحيح؛ ولكني أنافرك، إني أسمى منك سمة، وأطول منك قمة، وأحسن منك لمة، وأجعد منك جمة، وأسرع منك رحمة، وأبعد منك همة؛ فقال علقمة: أنت رجل جسيم؛ فقال عامر. آباؤك أعمامي، ولم أكن لأنافرك بهم لكني أنافرك، أنا خير منك عقبًا، وأطعم منك جدبًا. فقال علقمة: قد علمت أن لك عقبًا، وقد أطعمت طيبًا، ولكن أنافرك، إني خير منك، وأولى بالخيرات منك. فخرجت أم عامر –

---

[1]– حنا الفاخوري:الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، (ط1)، دار الجيل،بيروت،لبنان،1986، ص 115.

[2]– إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي (د.ط)، دار المعارف بمصر، ،1963، ص 09.

[3]– إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي (د.ط)، دار المعارف بمصر، ،1963، ص 09.

وكانت تسمع كلامهما– فقالت: يا عامر نافره، أيكما أولى الخيرات. قال عامر: إني والله لأركب منك في الحماة، وأقتل منك للكماة"[1].

هذه خطبة منافرة طويلة أخذت منها هذا المقطع، نموذجا عن النثر الجاهلي لنتعرف على بعض ملامحها في العصر ما قبل الإسلام وقد درست الدكتورة فاطمة حمد المزروعي البنية الفكرية لهذه المنافرة، في كتابها: (المنافرات في أدب قبل الإسلام)، فتقول: "يمكن الحديث عن ثنائية المدح والهجاء في النثر؛ لأن المتنافر في حواره مع المتنافر الآخر يعمد إلى مدح نفسه، وهجاء المتنافر الآخر، وما وصلنا من حوار علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، يثبت ذلك، وقد يدور حوار بين المتنافرين، يحاول فيه كل منهما أن يثبت أنه أفضل من الآخر، من دون أن يهجوه، مثل حوار القعقاع بن معبد بن زرارة وخالد بن مالك النهشلي، وقد يأتي حديث المتنافرين ردا على خطبة الحكم كما في منافرة سبيع بن الحرث وميثم بن المثوب عند مرثد الخير"[2]؛ حيث ركزت الدكتورة فاطمة المزروعي على ثنائية المدح والهجاء بين طرفي المنافرة، وهما يشكلان أساسا واضحا للإقناع العقلي والمنطقي المدعم بالحجج والبراهين.

إن علقمة بن علاثة قد مدح نفسه بالبر والوفاء وهجا خصمه عامر بن الطفيل واصفا إياه بالفجور والغدر، وهتك حرمات الجار، وضعف البصر[3]. وتعلق الدكتورة فاطمة الزروعي على منافرة الرجلين فتقول:"ولا يعني هجاء المتنافر لخصمه الآخر أن يسلبه صفاته جميعا، فهو يثبت له هذه الصفات، وينفي المتنافر ما يقال عنه، ومما قاله علقمة بن عامر في هذا السياق "[4]

2- خطب القتال والثأر:

تعد البيئة العربية– بما فيها من عوامل الحرب والقتال– أرضا خصبة ساعدت في نشأة الخطابة وتطورها؛ يقول حنا الفاخوري:"دارت الخطابة الجاهلية في نطاق البيئة التي نشأت وترعرعت فيها فكانت خطابة بطولة وفروسية يفوه بها الخطباء للدعوة إلى القتال والحض على النزال خطابة دفاع"[5]؛ حيث يضطر رئيس القبيلة إلى هذا النوع من الخطابة.

فقد عرفت خطب الحض على القتال والتشجيع على الأخذ بالثار في العصر الجاهلي وبها يتم شحن النفوس بالحمية العربية، يقول الدكتور بيومي السباعي:" فبها كانوا يحرضون على القتال وشن الغارات والأخذ بالثأر وبث الحمية في النفوس وتحبيب الموت إلى الجبان في بيئة تتطلب منهم ذلك كل وقت وآن . وبها كانوا

---

[1]– القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (د.ط)، دار الكتب المصرية القاهرة،مصر،1922،ج01، ص382 وما بعدها.

[2]– فاطمة حمد المزروعي: المنافرات في أدب قبل الإسلام، هيأة أبو ظبي للثقافة والتراث،الإمارات العربية،2009،ص223.

[3]– ينظر، فاطمة حمد المزروعي: المنافرات في أدب قبل الإسلام، ص223.

[4]– فاطمة حمد المزروعي: المنافرات في أدب قبل الإسلام، ص223.

[5]– حنا الفاخوري:الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص117.

يدعون إلى السلم كلما اكتووا بنار الحرب فلا يزال خطيبهم فيض في أضرار القتال ومنافع السلام حتى ينزع ما في صدورهم من غل ويستل ما بنفوسهم من حقد، فإذا هم قد أخلدوا إلى السكون وعادوا إخوانا وادعين ولو إلى حين"[1]. وأشهر خطب الحث على القتال خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني التي يحرض فيها قومه على قتال الفرس في يوم ذي قار، قال فيها: ""يا معشر بكر، هالك معذور؛ خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا بد"[2] ؛ يعلق أحمد حسن الزيات على أسلوب خطبة هانئ بن قبيصة، بقوله:"وهو يدلك على مذهب الجاهلين في النثر من تفكك المعاني وضعف ارتباط الجمل: يا معشر بكر ! (هالك معذور)، (خير من ناج فرور). (إن الحذر لا ينجي من القدر)، (وإن الصبر من أسباب الظفر) (المنية ولا الدنية)"[3]؛ ويعنى أحمد حسن الزيات، بقوله مذهب الجاهليين في النثر، أي أسلوبهم في الخطابة هنا، وبينه في أمرين هما المعاني المفككة، والجمل ضعيفة الارتباط ببعضها.

3- **خطب إصلاح ذات البين:**

كثيرا ما تقع خصومات بين الناس فيلجأون إلى الخطابة من أجل الإصلاح بين الناس، فينبري خطيب القوم إلى نظم خطبة إصلاح بين المتخاصمين ويسميها الدكتور إحسان النص: "إصلاح ذات البين ومن أشهرها خطبة قيس بن خارجة والدعوة إلى الصلح وحقن الدماء ومن أشهرها خطبة قيس بن خارجة التي قالها إثر حرب داحس والغبراء ، وقد قيل إنه ظل يخطب إلى الليل، وقد سماها العرب (العذراء) لأنه كان أبا عذرها، ولم تصلنا هذه الخطبة شأنها شأن كثير من الخطب"[4].

4- **خطب الزواج والإملاك:**

من المعلوم أن الأسرة العربية في العصر الجاهلي تقوم على أساس من العلاقات الإجتماعية، ويعد الزواج مظهرا من مظاهر العلاقات الإجتماعية وروابط النسب، حتى يستمر نسلهم ووجودهم بين بقية الأمم وقد أشار الدكتور عبد الرحيم محمود زلط إلى حرص العرب على الزواج، وعلى ارتباط الخطابة بالزواج، فقال:"حرص العرب حتى في جاهليتهم على إقامة الأسر عن طريق التزاوج فيما بينهم، وأن تتم هذه السمة الاجتماعية في محفل من الناس، يتقدم رهط من أهل العريس وفيهم شريف القوم إلى أهل العروس، وينوب هذا

---

[1]- السباعي السباعي: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي،(د.ط)،مطبعة العلوم بشارع الخليج، القاهرة،مصر،1932، ص 97.

[2]- أبو علي القالي: الأمالي،(د.ط)،مطبعة العلوم بشارع الخليج، القاهرة،مصر،1932، ص 97.

[3]- أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي،(د.ط)،دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة،مصر، ص 35.

[4]- إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، ص 10.

الشريف في إتمام"[1]. ويذكر الدكتور إحسان النص بعض عادات العرب في خطب الزواج والإملاك، فيقول:" كان من عادة العرب أن يتقدم لخطبة المرأة نيابة عن الراغب في زواجها شريف من رهطه فيخطب معدداً مآثر الرجل ، ويجيبه رجل من رهط المرأة بمثل مقاله . وكتب الأدب والسيرة تروى لنا خطبة أبي طالب حين أراد محمد عليه السلام الزواج من السيدة خديجة بنت خويلد. ويظهر أنه كانت لخطب الإملاك أصول وآداب معينة ، والسنة فيها أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب "[2]. وقد ذكر الجاحظ صورة خطبة النساء في الجاهلية وهي : « باسمك، ذكرت فلانة، وفلان بها مشغوف باسمك اللهم، لك ما سألت ولنا اللهم ما أعطيت "[3].

5- **خطب الإرشاد:**

خطب الإرشاد من أهم الخطب العربية في العصر الجاهلي، يوم فيها خطباء بنشر الوعي الديني بين العرب الذين فسدت ديانتهم وعقيدتهم، وإن كانت يعتورها الشك كما يرى الدكتور إحسان النص حيث يوضح:" ويتولاها من له في قومه منزلة الحكيم الناصح المرشد، ولعل الاضطراب الديني والقلق الروحي اللذين سادا في الجزيرة العربية قبل الإسلام كانا سببا في ظهور جماعة من الحكماء يدعون القوم إلى نبذ ما هم عليه من جهالة وضلالة وما يتعلقون به من عادات ونزعات غير حميدة. وعلى الرغم من شكنا في صحة ما وصلنا من هذه الخطب وميلنا إلى القول بانتحالها نعتقد أن حالة العرب في ذلك الحين كانت تستدعى هذا اللون من الخطابة ، فظهور قس وأضرابه في مثل هذه البيئة أمر طبيعي لا غرابة فيه، وخطبة قس التي قيل لنا إنه قالها بسوق عكاظ وأن الرسول رواها عنه هي أشهر هذا الضرب من الخطب ، ويعتقد مع ذلك أنها موضوعة "[4].

6- **خطب الوصايا:**

من الدارسين من صنف فن الوصايا ضمن الخطابة وأطلق عيها اسم خطب الوصايا كما فعل الدكتور إحسان النص، وقد عرفها بقوله:" وهي تدخل في باب الخطب ، وفي الغالب يوجهها الرجل إلى آله أو عشيرته عند إحساسه بدنو منيته ليرشدهم فيها إلى الطريق الذي ينبغى لهم أن يسلكوه والآداب التي ينبغي أن يتحلوا بها . وقد حفظت لنا وصايا كثيرة لم يسلم جلها من مظنة الوضع والانتحال"[5].

---

[1]- عبد الرحيم محمود زلط: الفنون الأدبية وأثرها في الحياة، فن الخطابة، مكتبة الشباب للنشر،القاهرة،مصر،1978 ،ج1، ص 18.

[2]- إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، ص 10.

[3]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج01،ص 408.

[4]- إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، ص 10.

[5]- إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، ص 11.

ومن أشهر خطب الوصايا خطبة عامر بن الضرب العدواني لقومه، فقال:" يا معشر عَدْوَان كلفتموني بَغْيا، إن كنتم شرفتموني فإني أريتكم ذلك من نفسي، فأنَّي لكم مثلى؟ افهموا ما أقول لكم، إنه مَنْ جَمَعَ بين الحق والباطل لم يجتمعا له، وكان الباطلُ أولى به، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل ولم يزل الباطل ينفر من الحق، يا معشر عَدْوَان لاَ تَشْمَتُوا بالذلة، ولاَ تفرحوا بالعزة فبكل عيش يعيش الفقير مع الغني، ومن يُرِ يوماً يُرَ به، وأعدُّوا لكل امرئ جَوَابه، إن مع السفاهة الندامة، والعقوبة نكال، وفيها ذمامة، وللبيد العُلْيا العاقبة، والقود راحة، لاَ لك ولا عليك، وإذا شئت وجدت مثلك، إن عليك كما أن لك، وللكثرة الرعب، وللصبر الغَلَبة، ومن طلب شيئاً وجده، وإن لم يجده يُوشك أن يقع قريباً منه"[1].

8- سجع الكهان:

هو لون من ألوان النثر الذي يهدف إلى إقناع السامعين والتأثير فيهم عن طريق الكلام المسجوع، ويعرفه الدكتور إحسان النص، بقوله:"وهذا ضرب خاص من الخطابة عرف في الجاهلية وانقرض بظهور الإسلام لأن وجوده كان مرتبطا بالديانة الوثنية، وقد عرف بسجع الكهان لالتزامه السجع، ولأن الذين عرفوا به هم طائفة الكهان الوثنيين في الجاهلية، وكان الناس يفزعون إليهم ليطلعوهم على أمور الغيب ويفسروا لهم أحلامهم ورؤاهم وكثيراً ما كانوا يحتكمون إليهم في المنافرات"[2]. وتروي كتب التاريخ منافرة هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعي الذي نَفَّرَ هاشِمًا على أمية؛ فقد جاء في كتاب:(السيرة الحلبية):" وقعت العداوة بين هاشم وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس، لأن هاشما لما ساد قومه بعد أبيه عبد مناف حسده أمية ابن أخيه، فتكلف أن يصنع كما يصنع هاشم فعجز، فعيرته قريش وقالوا له أتتشبه بهاشم، ثم دعا هاشما للمنافرة فأبى هاشم ذلك لسنه وعلو قدره، فلم تدعه قريش، فقال هاشم لأمية: أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة، والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضي أمية بذلك، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وكان بعسفان، فخرج كل منهما في نفر، فنزلوا على الكاهن، فقال قبل أن يخبروه خبرهم :(والقمر الباهر والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر)"[3]

ويروي الحلبي تفوق هاشم على أمية في هذه المنافرة، فيقول:"لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر فنصر هاشم على أمية، فعاد هاشم إلى مكة ونحر الإبل، وأطعم الناس، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية، وتوارث ذلك بنوهما، وكان يقال لهاشم وإخوته عبد شمس

---

[1]- الميداني: مجمع الأمثال،ج02، ص .

[2]- إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، ص 11- 12 .

[3]- **نور الدين الحلبي:** السيرة الحلبية إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون،ط3، المطبعة الأزهرية بمصر،1933، ص05 .

والمطلب ونوفل أقداح النضار: أي الذهب، ويقال لهم المجيرون لكرمهم وفخرهم وسيادتهم على سائر العرب"[1].

قيمة الخطابة العربية في العصر الجاهلي:

مما لاشك فيه أن التراث النثري العربي يشتمل على قطع نثرية خطابية لها قيمتها الفنية عند العرب، يقول الدكتور حنا الفاخوري مصورا قيمة الخطابة العربية في الجاهلية:"الخطابة الجاهلية خطابة شعب بدائي استوحى موضوعاتها وأساليبها من واقع بيئته، وراح يصور فيها تلك النفسية العجيبة في سرعة تفاعلها والأحداث، وشدة تقلبها مع الأحوال؛ تلك النفسية التي تترصن في وصايا الموت إلى حد السمو، ويرين عليها الهدوء والتروي في خطب السلم إلى حد الخروج عن طور البدائية؛ تلك التي تتنزى في خطب الحرب إلى حد العنف، وتندفع في خطب المفاخرة إلى حد الهياج"[2]؛

---

[1]– **نور الدين الحلبي:** السيرة الحلبية إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون،ط3، المطبعة الأزهرية بمصر،1933، ص05 .

[2]– حنا الفاخوري:الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص118.